بعـــد الرصافي . . .

للأستاذ عبد الوهاب الأمين

الآن ختم جيل الشعر في العراق ، وانطوت صفحة أخيرة من كتابه ، بعد أن فاضت روح معروف الرصافي . فقد توفي صباح يوم الجمعة الماضي ، الصادف ١٦ آذار سنة ١٩٤٥ في الأعظمية ببغداد .

وبموت الرصافي تبدأ صفحة جديدة في عالم الشعر العراقي ، وتنتهي سلسلة الشعراء الكبار الذين امتدت حياتهم بين القرنين التاسع عشر والعشرين ، والذين كان آخرهم في العراق — قبل الرصافي — جميل صدقي الزهاوي .

وحياة الرصافي تختلف عن حياة كل من عاصره من الشعراء من عدة وجوه . وليس المجال متسعاً للافاضة في تاريخ حياته ، لأن ذلك لا يتسع له مجال محدود ، بل الأجدر أن تقوم فئة بتدوين حياته تدويناً علمياً ، ولكن نقطة الاختلاف التي أشرت إليها تنحصر في عقدة نفسية كانت بارزة فيه . هي شدة حبه المطلق للحرية بجميع معانيها . حتى لقد كان هذا الحب الجارف أشبه بالقيد الذي قيد حياته ، وأثر في نفسه تأثيراً عظيماً . فهو من قبيل القيد النفسي الذي تقيد به العبيد والمتصوفون . ومن مظاهر هذا القيد الحق في نظري ، حياته الأخيرة البائسة قبيل وفاته ، حيث انزوى وانقطع عن العالم ، وأصبح يعيش مهملاً .

ومن المآسي النفسية أنه كان في وضعه ذاك يأنف أن يشار إلى حالته بغير ما لا يأتلف وكرامته الجريحة . فقد أذاع بياناً على الناس قبيل وفاته رفض فيه النغمة التي كانت ترددها بعض الصحف عن بؤس حالته وقال إنه يتبع فلسفة أبي العتاهية الذي يقول :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت

وهذه حركة تدل على أنفته وكبريائه الجريحين اللتين خفف من حدتهما السن والمرض .

ولقد أدى الإهمال وسوء الحال بصحة الرصافي إلى التردي يوماً بعد يوم مع أنه يملك جسماً يكاد يكون عملاقاً . ومن مميزاته الشكلية وضوح النظرة ، وجهارة الصوت ، وقوة العارضة .

***

عرف الناس الرصافي الشاعر الذي لا حدود لصراحته ولا رقيب على لسانه غير ما يعتقد ، منذ زمن بعيد ، كما عرف بكرمه الزائد وعدم انصياعه للضرورة مهما كان شكلها . وهاتان الخلتان تكفيان لأشقاء فرد في العراق لا مال له ولا سلطان ، ولا يعتمد اعتماد القرابة أو النسب على ذوي المال والسلطان . ولذلك كانت حياته سلسلة من تشرد ضيق الحدود ، فيه فوق صفة التشرد التزام الحشمة التي ينبغي على رجل كالرصافي أن يؤدي جزيتها .

ومن غريب المفارقات أن الرصافي كان يستخدم اسمه وشهرته وحب الناس له في قضاء حوائج غيره ممن لا يرتدعون عن اللجوء إليه في طلب الشفاعات ، ولعله كان أجدرهم بطلب الشفاعة لو أنه كان يأبه للضروريات ، ولو أن نفسه تقبل التوسيط والرجاء .

ولقد نبذ الزي المدني منذ زمن والتزم زي البدو من العشائر ، وسكن قبل مدة في الفلوجة إحدى القرى القريبة من بغداد ،

النيل إلى مجثم الخزان ، فإذا هو متحبس ماء جبار رابض في قاع من جلمد الصخر ، شيدته معجزة العلم الحديث بين ضفتين شامختين ومرتفعات راسخة ، حصرت الماء الذي رأيناه منبثقاً من خلال الخزان ، وكأنه أسنان مشط يرجل ضفائر عروس النيل ، فكان الزبد يعلو ثم يهوي فيتفجر دقيق الرؤوس ضخم الأجسام ثم تتناثر منه الأقدام رذاذ كأنه ضباب أو دخان .

وتولّع بنا صبية عوّامون في النيل حول الخزان ، وما راعنا إلا صغير منهم أسود الأديم قفز من ارتفاع عشرين متراً فهوى إلى الماء جنبنا وكأنه باشق حالك ، ولما غاص في الماء ثم عام أخذ يتقلب وكأنه سمكة سوداء .

وكذلك عدنا من أسوان ، بمسيرة يوم وبعض يوم ، معنا لذكراها أوعية من القش موشاة بالألوان ومراوح منسوجة ذوات طرر ، وقلائد من العاج سآخذها معي إلى الشام لأذكر بها أسوان كما ذكرتها من قبل إذ قرأت كتب العقاد .

(القاهرة) وراد سكاكيني